# مشكلات ترجمة الأعمال الروائية ونشرها

الدكتور سهيل ادريس

قد لا تكون هناك مبالغة في القول إن العامل الأساسي في إقامة حوار الحضارات هو تبادل التأثير الثقافي. وبالرغم من أن هذا التبادل ليس في الغالب متكافئاً في الوضع المتعلق بحضارتين غير متعادلتين، وأنه محكوم بعلاقة القوى المتواجهة التي تقوم على تأثّر الأضعف بالأقوى ونزعة الأقوى إلى إهمال شأن الأضعف، فإنّ خير الإنسانية الذي يسعى إليه المجتمع البشري ويطمح إلى تحقيقه هو التعارف الحقيقي الذي يقود وحده إلى التفاهم والاتفاق والسلام.

ونحن نؤمن بأن الترجمة هي في رأس العوامل التي تؤدّي إلى معرفة الآخر، حتى ولو كانت هذه المعرفة من أجل الاستغلال، كما هو شأن الاستعمار بمختلف أشكاله. ولكن لا بدّ أن تنتهي هذه المعرفة بما هو كفيل بتقويم الخطأ.

وقد لعبت الترجمة دوراً هاماً في نهضة الأدب العربي الحديث وشارك معظم ممثلي النهضة في حركة ترجمة الآثار الأوروبية أو اقتباسها. فأغنوا اللغة العربية بعدد كبير من النصوص، كان لها تأثير بالغ في تطوير الفنون الأدبية ولا سيما الرواية والقصة. وكان ما تُرجم عن الفرنسية يحتلّ المكان المرموق في لائحة المترجمات. وكان من أول ما نقل عن الفرنسية «مغامرات تليماك» لفينيلون التي ترجمها رفاعة الطهطاوي. و«پول وفرجيني» التي ترجمها عثمان جلال ثم اقتبسها المنفلوطي تحت عنوان «الفضيلة»، وترجم جميل المدور «أتالا» لشاتوبريان.. وتُرجمت روايات مختلفة لبلزاك لامارتين وبول بورجيه وفرانسوا كوبيه وغي دوموباسان وهنري بوردو واميل زولا وفلوبير واناطول فرانس واندريه جيد....

ولا شك في أن كثيراً من هذه الترجمات كان يشكو الضعف والتشويه وعدم الأمانة. ومن طريف ما نقرأه في هذا الصدد ما كتبه طه حسين نقداً لترجمة حافظ إبراهيم «للبؤساء»، فهو في رأيه يُلخِّص ولا يترجم، ويقول «إن ترجمته - على ضخامة ألفاظها وفخامة أساليبها، وعلى ما لها من روعة وجمال - ليست دقيقة ولا حسنة الأداء»، ثم عاب عليه «الإسراف في اللفظ الغريب والإعراض التامّ عن بعض النصوص والتشويه الذي يختلف قوة وضعفاً لبعضها الآخر». وأطرف ما جاء في نقد طه حسين لهذه الترجمة قوله: «ما رأيك في أني أقرأ الأصل الفرنسي لـ «البؤساء» فأفهمه بلا عناء، وأقرأ ترجمته العربية فلا أفهمها إلا كارهاً... وكثير من الناس يفهمون البؤساء بالفرنسية فهماً يسيراً، ويفهمونها بالعربية فهماً عسيراً!»

ومما يثير العجب حقّاً أن يتصدّى للترجمة كتّاب لا يعرفون اللغة الأجنبية كالمنفلوطي الذي كان يكلّف بعض أصدقائه بترجمة الآثار الفرنسية ثم «يقتبسها»: فَعَل هذا بعدد من الروايات مثل «تحت ظلال الزيزفون» لألفونس كار، و«في سبيل التاج» لفرانسوا كوبيه و«پول وفرجيني» لبرنردين دو سان بيار و«سيرانو دو بيرجيراك» لأدمون روستان... وفي «العبرات»، للمنفلوطي عدّة قصص مقتبسة عن شاتوبريان والكسندر دوما الابن. ونحن نعتبر أعماله في هذا الميدان نموذجاً لـ«الترجمة ـ الخيانة» Traduction trahison!

★ ★ ★

ولا شكّ في أن الإقبال على ترجمة الآثار الفرنسية الروائية خاصّة، محدود نسبياً إذا قورن بالإقبال على ترجمة الروايات

الانكليزية أو المكتوبة باللغة الانكليزية، ويعود ذلك إلى أن الثقافة الفرنسية في العالم العربي هي دون الثقافة الانكليزية انتشاراً، وهي الآن تزيد تراجعاً لصالح الثقافة الانكليزية. ومع ذلك، وربما كانت هذه مفارقة، فإن ذوي الثقافة الفرنسية أكثر إتقاناً للغة الفرنسية من مثقفي الانكليزية للغة الانكليزية. وهذا هو السرّ في انعدام الإقبال على المترجمات الفرنسية في تونس والجزائر والمغرب التي يفضّل مثقفوها قراءة الأدب الفرنسي، ومنه الرواية، بلغته الأصلية على قراءته مترجماً.

على أن سياسة «التعريب» التي تنتهجها حكومات بلدان المغرب العربي في مواجهة سياسة «الفرنسة» دفعت باللغة العربية إلى المقام الاول، ولا سيما في الجزائر، مما يحدو بنا إلى توقّع ازدياد الإقبال على الأدب المترجم في السنوات القادمة.

★ ★ ★

ينبغي أن نعترف بعدم توفّر المترجمين الأكفاء من الفرنسية إلى العربية، ونحن نادراً ما نعثر على المترجم الذي يُحسن اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها. ونعتقد أن الكفاءة في هذا الميدان نوعٌ من الإبداع.

وبالرغم من أن الترجمة موهبة أدبيّة بذاتها، فإنّ الوسيلة المساعدة تلعب الدور الأهمّ في إجادة الترجمة أو إساءتها.

والواقع أننا كنا، حتى السبعينات، نفتقر إلى مثل هذه الوسيلة، أي إلى معجم فرنسيّ عربي جيّد يعين المترجم في أداء عمله.

والحق أن هذا ما كان قد دفعني، وأنا أدرّس مادة الترجمة والتعريب في الجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية، إلى الانكباب على وضع معجم كبير بعنوان «المنهل» شاركني في وضعه الدكتور جبور عبد النور، وصدر عام ١٩٧٠، وأنا أزعم أن هذا المعجم قد حلّ كثيراً من المشكلات التي كان يواجهها المترجمون العرب عن اللغة الفرنسية، بالرغم من أنه أصبح الآن، وهو على وشك الصدور في طبعته العاشرة، بحاجة إلى إعادة نظر. ولكن افتقارنا إلى معجم ثنائيّ عربي - فرنسي لا يزال قائماً، حتى بعد صدور معجم عبد النور. أما معجم «الكامل»، فإن ما صدر من أجزائه التي لم تتجاوز حرف «الراء»، يجعل الاستعانة به محدودة النفع، بالإضافة إلى ما يشكوه من أن منهجه المعجميّ - باعتماد الكلمة مصدريًّا، لا ألفبائيًّا، أي كما تنطق أو تُملى - قد تجاوزه الزمن. وأما معجم «السبيل» الذي صدر عن «لاروس» فإنه يفيد حتماً في ترجمة ما هو حديثٌ في الإنتاج العربيّ المعاصر، ولكنه يقصّر تقصيراً فادحاً في ترجمة ما هو قديم أو وسيط من الآثار العربية، ويوحي بأنّ اللغة العربية فقيرة، وهو ما ينافي الواقع.

★ ★ ★

ليُسمحْ لي هنا، وأنا أتحدّث عن مشكلات الترجمة، أن أورد طرفاً من تجربتي الشخصية في ترجمة الأعمال الروائية الفرنسية.

لقد ترجمتُ، خلال ربع قرن، ما يزيد عن عشرين رواية ومسرحية فرنسية، أشهرها لجان بول سارتر، ومنها ثلاثية «دروب الحرية» و«الغثيان» و«الكلمات» و«البغي الفاضلة» و«الذباب» وقصص قصيرة له، و«الطاعون» لكامو، و«مونسيرا» لروبلس، و«هيروشيما حبيبتي» لمرغريت دورا، و«الثلج يشتعل» لريجيس دوبريه الخ... كما ترجمت عن الفرنسية روايات لكتّاب غير فرنسيين أمثال البرتو مورافيا وبيراندللو وكاواباتا...

ومن ممارستي للترجمة ومراقبة المخطوطات المترجمة التي يقدّمها المترجمون والتي كنت أراجعها تمهيداً لنشرها في «دار الآداب»، وجدت أنه ربما كانت أفضل ترجمة نقدّمها للقارئ الترجمة الأقرب إلى الحرفيّة، فهي وحدها التي تؤمّن في الوقت نفسه الدقّة المطلوبة ونقل روح النصّ الأصلي الذي يشكّل خصوصيّة كل لغة وفرادتها، ويحفظ لها «عبقريّتها» الذاتية. من أجل هذا، نخالف الرأي الشائع الذي يذهب إلى أن الترجمة الفضلى هي التي لا يحسب القارئ أنها مكتوبة باللغة المنقول إليها وينسى أنها نصّ مترجم. ونرى، على العكس، أنها هي القادرة على تذكير القارئ دائماً بأنها نصّ مترجم، لأنها هي وحدها الكفيلة بتأمين «التغريب» المطلوب في تلاقح الثقافات.

★ ★ ★

وتعاني الترجمة عن اللغات الأجنبية، ولا سيما الفرنسية، قصوراً وتراجعاً في هذه الأيام. ولعلّ من المرغوب فيه أن تعمل المؤسسات المتخصّصة على دفع عملية الترجمة للأعمال الروائية المتميزة بتيسير الوسائل المؤدّية إلى ذلك، من مثل الإسهام في نفقات الترجمة والنشر والتوزيع وسواها. ولا شكّ في أن لـ«معهد العالم العربي» دوراً هاماً يلعبه في هذا المجال. إن الترجمة والنشر عمليّتان خاضعتان في آخر المطاف لنفقات مالية معينة لا بدّ من تأمينها للمترجم

والناشر. وليس هناك أيّ ضيرٍ في أن تتصدّى المؤسّسات المعنيّة لهذا العمل لصالح الثقافتين المتفاعلتين، وإن كانت الشكوى من ضعف الاهتمام بترجمة الرواية العربية المتميزة إلى اللغة الفرنسية تجد بعض التبريرات.

والحقّ أن إحصاءً بسيطاً لما تُرجم من الروايات العربية إلى الفرنسية يدلّ على أن الإقبال على هذه الترجمة محدودٌ جداً إذا قورن بما تُرجم عن اللغات الأخرى، حتى بالنسبة لآداب العالم الثالث. ونحن الذين نتابع ما يُترجم إلى الفرنسية من الروايات الأجنبيّة، ونقدّم إلى القرّاء العرب بعض هذه المترجمات، نستطيع أن نؤكّد أن ما يستحقّ أن يُترجم إلى الفرنسية من الإنتاج الروائيّ العربيّ المعاصر يبلغ أضعاف أضعاف ما نُشِرَ حتى الآن باللغة الفرنسية..

هل يحقّ لنا أن نتساءل هنا إذا كانت بعض كبريات دور النشر الفرنسية تمتنع عن نشر ترجمات للرواية الحديثة بتأثير أو ضغط من أعداء العرب أو من نزعة عنصرية أو من أحقاد موروثة من الحروب الصليبية؟

إذا كان الجواب على هذا التساؤل يشير إلى شيء من الصحة فيه، فإنّ المفكرين والناشرين الفرنسيين المتعاطفين مع العرب ومع التاريخ العربي ومع الثقافة العربية مدعوّون إلى مضاعفة جهودهم في إعطاء الإنتاج الروائيّ العربي خاصّة ما يستحقّه من الترجمة إلى اللغة الفرنسية.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن دخول لبنان، دون سائر الدول العربية، في اتفاقيات جنيف وبرن المتعلقة بحقوق الترجمة، يزهّد في الإقبال على ترجمة الآثار الفرنسية وسواها. ولعلّ من مهمّات معهد العالم العربي أن يتولى عن المترجمين والناشرين العرب العمل على إعفائهم من دفع حقوق الترجمة إلى الناشر الأجنبيّ وطلب العون من الأونسكو لتحقيق ذلك.

وهذا ما سيدفع الناشر العربي، وخاصة اللبناني، إلى التحمّس لمزيد من الإقبال على الترجمة، ولا سيما عن اللغة الفرنسية.

★ ★ ★

أما المشكلات التي يواجهها نشر الأعمال الروائية الفرنسية المترجمة إلى العربية فيقتضينا الإنصاف أن نورد على رأسها صرامةً مبدئيّة تتّخذها الرقابات العربية في التعامل مع الرواية المترجمة، بحجّة أن الرواية الأصليّة مكتوبةٌ لمجتمع تختلف تقاليده عن المجتمع العربي عامة والإسلامي خاصة، لا سيما إذا كانت تلك الرواية تعالج مشكلة عاطفية أو جنسيّة، ولكن هذه الصرامة نَصِفُها بأنها مبدئيّة، لأنها قد تخرج من المبدئيّة إلى الاعتباطيّة حين تطرأ بعض المتغيّرات غير الموضوعية.

والواقع أن ناشر الروايات المترجمة إلى العربية يظلّ حائراً ومتردّداً أمام تقلّب الرقابة العربية، أي سياسة الأنظمة العربية المتقلّبة، في مواجهة الشؤون الثقافية بشكل عامّ. فهو يخشى دائماً أن تمنع رواية مترجمة في عهد سياسي يختلف عن العهد الذي سُمحت فيه تلك الرواية. وهذا يدل طبعاً على انعدام الموقف الثقافي الموحّد، وعلى أن رياح السياسة تبقى هي التي تظلّ تحكم مع الأسف مجرى الثقافة والأدب في العالم العربيّ. ومن أجل هذا، نتساءل إذا لم يكن من العبث ما نطالب به، منذ وقت طويل، من إلغاء الرقابة على الكتب والمنشورات وإطلاق حرية الكاتب ـ والمترجم والناشر ـ في الوطن العربي؟ (*).

---

(★) ورقة قُدّمت إلى ندوة «الإبداع الروائي اليوم» التي أقامها معهد العالم العربي في باريس من ١ ـ ٤ آذار ١٩٨٨.